الفصل السابع

"مكة فى عيون الرحالين المسلمين"

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت مكة المكرمة دائماً فى فكر وقبلة للرحالة العرب والمسلمين على طول الدوام ومن ثم كانت مكة قد استضافت الأغلب الأعم منهم خاصة من خلال رحلات الحج ووفود الحجاج إلى بيت الله الحرام وقد وقع اختيار على نماذج من أشهر الرحالين من قرون مختلفة وجنسيات عدة .

وكما حرص العرب والمسلمون على زيارة مكة حرص على هذه الزيارة مستشرقون كثر ، خاصة مع بداية فكرة التوسع الأوروبي ، بغية أن يتعرّفوا على مكة المكرمة.. وقد حاول عدد كبير من الرحالة الأجانب دخول مكة متنكرين بأسماء إسلامية حباً في الاستطلاع أو خدمة لدوائر الاحتلال، فنجح بعضهم وفشل بعضهم الآخر، كما صدق آخرون في إسلامهم ودخلوا مكة مسلمين وكتبوا مشاهداتهم وسجّلوا انطباعتهم لشعوبهم.

ومن أوصاف البعض منهم ما يلى :

من قول جوزيف بيتس "١٠٩١هـ= ١٦٨٠م" "[١٤٨]":

---

148 – " المدعو الحاج يوسف"وهو صبى إنجليزي يعشق المغامرة غادر إنجلترا في السادسة عشرة من عمره ليعمل على متن السفن المسيحية في البحر المتوسط، حيث سقط أسيرا في أيدي أحد مجاهدي البحر الجزائريين فاتخذه عبدا له بعد أن اعتنق الإسلام وتسمى باسم يوسف قبل أن يرتد بعد ذلك بخمس عشرة عاما إلى المسيحية ويهرب من الجزائر عائدا إلى وطنه، وفي عام ١٦٨٠م قرر سيده اصطحابه معه لأداء فريضة الحج حيث خرج برفقة قافلة الحج الجزائرية متخذين الطريق البحري باتجاه الإسكندرية التي مكثوا بها ثلاثة أسابيع قبل الانتقال إلى مدينة رشيد ثم على متن أحد المراكب النيلية في فرع رشيد إلى القاهرة التي مكث بها بعض الوقت قبل أن يتجه مع قافلته برا باتجاه مدينة السويس حيث ركب الجميع إحدى السفن لتمخر عباب البحر الأحمر باتجاه ميناء جدة. وفي جدة بدأت أولى الإجراءات بتعريف الحجاج الجزائريين كيفية أداء مناسك الحج بشكل تام قبيل الوصول إلى مكة المكرمة التي دخلوها مع

مما ذكره جوزيف بيتس في مذكراته وَصْفُ صعود الحجاج على جبل عرفات، قال: «كان مشهداً يخلِبُ اللُّبّ حقاً أن ترى هذه الآلاف المؤلفة في لباس التواضع والتجرّد من ملذات الدنيا برؤوسهم العارية وقد بلّلت الدموع وَجَناتهم، وأن تسمع تضرُّعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة». وها هو يتحدث عن مقابلته لأحد الإيرلنديين الذي اعتنق الإسلام ورفض الارتداد عنه رغم الـمُغرِيات التي وُضعت أمامه: «وقال إن الله قد منّ عليّ بالإسلام والجنة بدلاً من جهنم أوروبا»!! "[١٤٩]".

من قول ريتشارد بيرتون ١٢٦٩ هـ= ١٨٥٣م"[١٥٠]" أمام شعائر الحج في مكة المكرمة : قائلاً: «لقد رأيت شعائر دينية في بقاع كثيرة من الأرض، لكنني لم أر أبداً ما هو أكثر وقاراً وتأثيراً مما رأيته هنا».

من قول دومنجكو باديا ليبليج ١٨٠٧م"[١٥١]" :

الدليل الذي رفع يديه بالدعاء مما أثر في الحجاج. وحسب قول جوزيف بيتس: "عندما وقع نظر الحجاج للمرة الأولى على الكعبة المشرفة فاضت عيونهم بالدموع". وكتب جوزيف بيتس الذي أضمر الارتداد عن الإسلام عن طواف الحجاج وسعيهم ومناسك الحج باعتبار ذلك خرافات وأعمالا وثنية.

149 – خاتم الطحاوى ، جوزيف بيتس "١٠٩١هـ= ١٦٨٠م"الحاج يوسف" ، أرشيف التاريخ العالمى الإسلامى، http://www.startimes.com/f.aspx?t=8549841

150 – بيرتون: مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي ولد عام ١٨٢١م، حَظِيَ بتكليف الـجمعية الجغرافية الملكية بلندن في عام ١٨٥٢م للقيام برحلة لاستكشاف وسط وشرق الجزيرة العربيّة. فقام برحلته منطلقاً من مصر إلى بلاد الحجاز.

151 – في عام ١٨٠٧م وصل الحجاز رجل إسباني الأصل يُدعى دومنيكو باديا ليبليج، قد انتحل اسماً ونسباً عربياً (علي بك العبّاسي). وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذا الرجل، فمنهم من قال إنه كان عميلاً للفرنسيين أو البرتغاليين أو الإنجليز، ومنهم من قال إنه من أحفاد المسلمين الذين نجّوا بدينهم من التعصُّب النصراني الأعمى، ومن محاكم التفتيش في إسبانيا.

مما كتبه في مذكراته: «إنّ الإنسان لا يستطيع أن يكوّن فكرة عن ذلك المنظر المهيب الذي يبدو في مناسك الحجّ بصورة عامّة إلا بعد الوقوف على جبل عرفات؛ فهناك حشد من الرجال الذين لا يُحصى لهم عدد، وهم من جميع الأمم، ومن جميع الألوان، وقد أتَوْا من أركان المعمورة على الرغْم من المخاطر والأهوال لعبادة الله، فالقفقاسي يمد يده للحبشي أو الإفريقي أو الهندي أو العجمي، ويشعر بشعور الأخوة مع الرجال من البرابرة من سواحل مراكش، وكلهم يعُدُّون أنفسهم إخواناً أو أعضاء في أسرة واحدة».

من قول توم رادل

«مكة، هي مدينة الفرح والمتعة الروحية والإشباع النفسي، فهي مدينة مشرعة الأبواب في كل الاتجاهات، لا يحتاج دخولها إلى بطاقات خاصة، ولا إلى مكانة اجتماعية مرموقة. يدخلها الصغير والكبير، والغني والفقير، والقائد والتابع، فالمواطنة فيها هدية من الخالق، تُمنح لكل من يريد أن يعيش بهدوء وسكينة، ومع ذلك لا ينتمي إليها إلاّ قلة من الناس، أولئك الذين أدركوا المعنى الحقيقي للسعادة والمصدر الحقيقي للقوة»"[١٥٢]".

---

[152] – قد تعجب إذا علمت أن الأوصاف السابقة قالها رجل غير مسلم، وقد تعجب أكثر إذا علمت أن هذه التعابير لم تَرِدْ في سياق موعظة دينية، ولا توصيفاً لرحلة جغرافية استكشافية، وإنما جاءت تدعيماً لنظرية في إدارة الذات! قدّم توم رادل، وهو كاتب إداري شهير في أمريكا، في كتابه الذي ألفه عام ١٩٩٧ باسم (مكة كونها مؤثّراً: خمسة متطلبات للنجاح العملي والشخصي) طريقة مبتكرة في إدارة الذات سمّاها (مكة)، مصرّحاً في مطلع كتابه، أنه استنبط فكرة (مكة) من أحد الأديان العظيمة، واخترع الكاتب مصطلحات إدارية جديدة مرتبطة باسم مكة مثل (معامل مكة) و(مصفوفة مكة) و(معادلة مكة) و(نظام مكة) و(فريق التمكين المكي) و(الشخصية المكية) و(عملية التأسيس المكية) وغيرها، ويقول – بحسب

وفى الحقيقة فإن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويلة، وملاحظات هؤلاء اختلفت بمرور الزمن. فقد كان الأوائل منهم أكثر اهتماماً بشرح تفاصيل الدين ومناسك الحج. كما أن بعضهم ركّزوا على دحض الأخطاء والخرافات الرائجة في أوروبا عن الدين الإسلامي ومقدساته؛ أما المتأخرون منهم، فقد ذهبوا إلى وصف أدقّ لحال سكان مكة والمدينة، والحجاج وأحوالهم، كما استغل رحالة كل بلد أوروبي فرصة الحج للتجسّس على حجاج مستعمرات بلده.

وقد كانت هناك بضعة عوامل مشتركة بين هؤلاء الرحالة، الأوائل منهم أو المتأخرين؛ فجميعهم تعلّم اللغة العربية وأجادها واستعدّ للرحلة وتعلم الدروس ممن سبقوه إليها بفطنة شديدة.

أولاً : مكة فى وصف المقدسى :

ندين لبعض الرحالة بفضل معرفة قسم كبير من تاريخ بعض الأماكن الهامة والتي سجلت عدسة ذاكرتهم الأحداث التي حصلت فيها وسطر يراعهم وصفًا لمواقع ومدنًا زاروها فقدموا وصفًا لعمائرها وشوارعها ومبانيها ومعاشها وأهلها) ملابسهم وعاداتهم) في أزمنة لم تعرف التلفاز أو السينما ولولا هؤلاء الرحالون لضاع بعض من تاريخنا وتاريخ هذه الأماكن الهامة والتي تأتي مكة المكرمة في مقدمتها ومن هؤلاء كان الرحالة محمد بن أحمد البشاري المقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم

خلاصة كتابه الذي نشرته الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع) -: «وهذا الاستنباط يعني أنه يمكن استلهام تعاليم ومعاني هذه الرسالة السماوية لانتشال الناس، من كل العقائد والأجناس، من غفلتهم، لا سيما أولئك الذين يجاهدون في سبيل البحث عن بُعد روحي يرتكزون إليه فتطمئن قلوبهم عبر رحلتهم في هذا العالم...». ويقال إنه اعتنق الإسلام.

في معرفة الأقاليم»([153]) . وقد قضى المقدسي -رحمه الله- عمره لهذا الهدف عشرين عامًا يتنقل بين مختلف الأقاليم الإسلامية يحتك مع مختلف

---

153 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم هو كتاب جغرافي، ألفة محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالمقدسي البشاري (٣٣٦ هـ-٣٨٠ هـ، يعد الكتاب أحد أشهر الموسوعات الجغرافية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، وقد أفرد مصنفه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي بذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من البحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة، ومنازلها المسكونة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم ومأكلهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار، وعدد المنازل، وذكر الرمال والتلال والسهول والجبال، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص، والممالك والحدود والمصادر، وذكر الصنائع والعلوم . قال المقدسي البشاري الواوي (نسبة إلى ابن اوى كثير التنقل والترحال) في مقدمة كتابه : اعلم أني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب، وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، ويبلغني الرجاء والأمل، فأعلي قواعد وأرصف بنيان ما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان، وعملت الدعائم والأركان، ومن قواعده أيضا وأركانه، وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت ولم يتقدر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك، وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها .

الأجناس بها ويستفيد من أهل العلم ويطلع على المكتبات في البلاد والتي يزورها([١٥٤]) .

كان ذلك في القرن الرابع الهجري ذلك القرن الذي كان التقدم العلمي فيه قد بلغ مكانة كبيرة. وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م وحج مرة أخرى عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م وجاور في مكة وأخذ عن علمائها .

وكان ياقوت يدعوه تارة بنسبته (البشاري) وأحيانًا بأسمائه الأخرى مثل (ابن البناء) ويضيف قائلاً: إن المقدسي ولد عام ٣٣٦هـ أي ٩٤٧م وإنه توفي سنة ٣٨٠هـ الموافق ٩٩٠م. كما يذكر اللعيبي أن رحلة المقدسي هي ثمرة سنوات طوال من الأسفار والترحال في أقاليم العالم القديم امتدت من سنة ٩٦٥م إلى ٩٨٤م([١٥٥]) .

ولم يخرج المقدسي كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» إلا في سنة ٣٧٥هـ /٩٨٥م بعد أن بلغ الأربعين من العمر وأقر مادته العلمية جمع من الأئمة والعلماء بعد أن استشارهم في إصداره . وقد أرفق المقدسي مع كتابه خريطة ملونة تبيِّن الحدود ورسم البحار والأنهار والجبال وغير ذلك إلا أن هذه الخريطة فقدت ولم توجد مع الأسف إلى الآن . و تعود أهمية كتاب المقدسي لأنه سلط الضوء على جوانب لم تحظَ باهتمام من سبقوه كما يضيف أن كثيرًا من الكتَّاب أدركوا الأهمية العلمية لهذا

---

154 – أنظر فى ذلك : عبد العزيز بن راشد السنيدى ، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط١، الرياض ، ١٤٢٧هـ ، صفحات مختلفة .

155 – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ – ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، عدة طبعات .

الكتاب، ويذكر لنا أن «سبرنجر كشف أول مخطوطة لأحسن التقاسيم فاعتبر أن المقدسي من أكبر جغرافيي العالم، وعدَّ كرامرز كتاب المقدسي أفضل مصنفات الأدب الجغرافي العربي . والمقدسي الذي قسم الأرض إلى سبعة أقاليم جعل مكة في الإقليم الثاني منها ووصف تضاريس مكة وذكر محاذاة جبل قعيقعان وأبي قبيس لبعضهما البعض وكأنه يشير –دون تصريح– بوقوع مكة بينهما([156]) .

الانطباع الأولى للمقدسى عن مكة :

عندما بدأ المقدسى زيارة مكة قال فى ذلك : «كل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة، وعرضها سعة الوادي والمسجد في ثلثي البلد، أي المسفلة والكعبة في وسطه». ويقول : " هى عبارة عن جزئين، المعلاة في شمال وشمال شرق المسجد الحرام، وتشكل بمساحتها العمرانية ثلثي البلد، في حين تأتي إلى الجنوب تقريبًا من المسجد المسفلة ويشكل عمرانها الثلث المتبقي من مكة " .

وذكر المقدسي في حديثه عن مكة أنها كانت عندئذٍ أكبر من بيت المقدس وأن عمارة المدينة المنورة في زمنه كانت أقل من نصف عمارة مكة المكرمة.. وذكر كثرة عدد سكان مكة وازدهار تجارتها آنذاك .

كما ذكر أن مكة إبان زيارته لها كانت محصنة بالأسوار وبيَّن أن الدخول إليها يأتي عبر أربعة أبواب «أبواب مصنوعة من الحديد، اثنان منها في الجهة الشرقية من السور حيث يدخل منها القادمون من العراق، والثالث في الجهة الشمالية ومنه يدخل القادمون من جهة التنعيم، أما

---

156 عبد العزيز بن راشد السديمى ، مرجع سبق ذكره ، صفحات مختلفة .

الرابع ففي الجهة الجنوبية، وعبره يجتاز إلى داخل مكة الوافدون من اليمن" ، كما وصف المقدسي دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك حيث ذكر أن : «منازلها على شكل طبقات، تبنى من الحجارة المختلفة الألوان والآجر، وتسقف بخشب الساج" . وقد تحدث المقدسي عن مصادر الماء بمكة فذكر ثلاث برك بقوله :« وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة من بستان بني عامر.

قول المقدسى فى عمارة البيت الحرام :

أما عن عمارة المسجد الحرام فإن المقدسي أتحفنا بمعلومات عنها، فذكر عمارة الخليفة العباسي المنصور والتي استغرقت ثلاث سنوات من عام ١٣٧هـ/٧٥٤م إلى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م وذكر اعتراض بعض أصحاب المنازل المحيطة بالمسجد ولكن تدخُّل الإمام أبي حنيفة -والذي صادف أن كان حاجا ذلك العام- أقنع أصحاب الدور بالموافقة على التوسعة نظرًا لضرورتها. وتحدث المقدسي عن المسجد الحرام فذكر : " أن طوله كان يبلغ ثلاثمائة وسبعين ذراعًا، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعًا .«كما ذكر المقدسي أن للمسجد آنذاك تسعة عشر بابًا، قام بذكر أسمائها كما يلي: (باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزارين، باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب جياد، باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة.)([١٥٧]).

---

[157] – يبدو أن بعض هذه الأسماء أُطلقها المقدسي اجتهادًا منه حسب ما رآه منتشرًا من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب

أما عن المطاف فذكر المقدسي أن مكان الطواف مفروش بالرمل بينما يغطي الحصى بقية أرض المسجد وتحدث عن إنارة المطاف وأشار إلى أن القناديل كانت تعلق بالسلاسل. ووضح المقدسي كيفية إنارة المطاف ذاكرًا أن هناك أعمدة، أطلق عليها اسم الأميال، مصنوعة من حديد الصفر، وتصل بينهما أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفي هذه القناديل كانت توضع الشموع. ثم تحدث المقدسي عن بئر زمزم قائلاً «وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما» مبيناً أن موقع بئر زمزم مقابل لباب الكعبة. أما عن مقام إبراهيم فتحدث المقدسي قائلاً : « والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام المواسم» ، وتحدث عن صندوقين خصِّصا لتغطية المقام حسب الظروف والمناسبات أحدهما مصنوع من الخشب والآخر من الحديد.([158]).

وصف المقدسي للكعبة المشرفة :

ووصف المقدسي في كتابه الكعبة المشرفة بشكل مقتضب دون الدخول في التفاصيل وذكر أن ارتفاع الكعبة سبعة وعشرون ذراعًا، وقال إن مسافة الطواف مائة وسبعة أذرع . كما وصف الحجر الأسود وقال إنه «على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنسان ينحني إليه من قبله يسيرًا . أما عن حِجْر إسماعيل فقد تحدث المقدسي عن ذرع تدويره فذكر أن «ذرع تدويره خمسة وعشرون ذراعًا». كما

158 – وذكر ابن جبير في رحلته هذين الصندوقين مؤكداً قول المقدسى فىذلك ، بحيث يوضع الصندوق الحديد على المقام أثناء الموسم ليحتمل الزحام، أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من الخشب .

وصف موقع الحِجْر وشكله بقوله : " والحِجْر من قبل الشام فيه يقلب الميزاب شبه أندر([159]) قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه، وارتفاعها (حقو)([160]) ويسمونه الحطيم، والطواف من ورائه" .

قول المقدسى فى أسواق مكة :

وتحدث المقدسي عن أسواق مكة ولاحظ مدى تلاصقها بأبواب المسجد الحرام وعلاقتها لبعض السلع التي كانت تباع قربها. وذكر المقدسي أن الفواكه كانت تجلب إلى أسواق مكة من الطائف كما تحدث عن البلدان التي تجلب منها الملابس والثياب إلى مكة فقال: «ومن طبرستان الأكسية التي تفضل على الفارسية وطيالسه وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم وكبار تسمى بالغرب المكية واللفائف». وذكر المقدسي بعض النقود المتداولة في مكة فقال : «لأهل مكة المطوقة وهي والعشرية ثلثا المثقال تؤخذ كدراهم اليمن عددًا وتفصل العشرية حتى ربما كان بينهما دريهم». وعن الدراهم المتداولة في مكة قال المقدسي : " والدراهم المستعملة في الأقاليم تسمى بمكة المحمدية "([161]) .

---

159 – فى لسان العرب الأندر بأنه البيدر .

160 – فى لسان العرب الحقو هو : الخصر ومشد الإزار من الجنب .

161 – المقدسى المعروف بالبشارى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

ثانياً : رحلة ناصر خسرو إلى مكة ووصفه لها:

رحلات ناصر خسرو([١٦٢]) والتي أوردها في كتابه النثري الوحيد (سفر نامه) أي كتاب السفر، قد استغرقت هذه الرحلات سبع سنوات بين عامي ٤٣٧هـ ، ٤٤٤هـ ، أولى هذه الرحلات حين أدى ناصر خسرو فريضة الحج أربع مرات خلال هذه السنوات. وقد أجاد ناصر خسرو في وصفه للأماكن من الشام إلى الحجاز، أو من مصر إلى جدة ومنها إلى مكة والمدينة.

أدى ناصر خسرو أول فريضة حج عام ٤٣٨هـ ، وقد أشار إلى هذه الرحلة دون أية تفاصيل مرجئاً الحديث عنها إلى رحلة حج أخرى ، وقد اكتفى بالحديث عن مشاق السفر، وأنه سافر سيراً على الأقدام من القدس الشريف إلى مكة المكرمة في ثلاثة عشر يوماً، وكان الطريق – على حد قوله– ممتلئ بالأعراب الخطرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب.

---

162 – ناصر خسرو قبادیانی (١٠٠٤ – ١٠٨٨ م) رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي، اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي وعمل داعياً له. له كتاب الأسفار أو السفرنامه، الذي دوّن فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي، وامتاز بوصف دقيق لبيت المقدس ووصف نادر لأحوال وسط وشرق الجزيرة العربية أيام القرامطة والأخيضريين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). الكتاب باللغة الفارسية ويتمتع بقدر من الشعبية في إيران، إلا أنه مترجم أيضاً إلى العربية. كان ناصر خسرو شيعياً من فريق إسماعيلية ولكنه لا يشارك الكسائي كراهيته للخلفاء الثلاثة الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان. والشاعر يبالغ في إطراء علي وشيعته وفاطمة والأئمة وسلمان الفارسي والمختار الذي انتقم لموقعة كربلاء. أما الخليفة العباسي فيذكره الشاعر باسم الشيطان العباسي أو ديو عباسي. وهو يذم أهل السنة ويسميهم الناسبيين كما يذم ثلاثة من أئمة المذاهب السنية وهم أبي حنيفة ومالك والشافعي.

عاد بعدها ناصر خسرو إلى القدس مرة ثانية، ومن هناك واصل الرحلة إلى مصر، حيث أقام فيها ثلاث سنوات، أتاحت له هذه الإقامة ثلاث رحلات حج ، وحيث استطاع أن يتقرب إلى سلطان مصر في ذلك الوقت المستنصر بالله الفاطمي، فكان يبعثه ضمن البعثة المصرية الرسمية المصاحبة للكسوة الشريفة، وقد قال عن هذه السفرة الثانية: " ... رافقت الكسوة قاصدين الذهاب إلى مكة، وقد غادرت القافلة المكلفة بإيصال الكسوة من مصر في غرة شهر ذي القعدة، وكنت مع القافلة حيث وصلنا إلى بحر القلزم، وركبنا الباخرة، وبعد خمسة عشر يوماً وصلنا إلى ميناء الحجاز على ساحل الحجاز، ومن الحجاز اتجهنا إلى المدينة فوصلناها بعد أربعة أيام".

وفي عام أربعين وأربعمائة أتيحت له فرصة الحج للمرة الثالثة، وذلك بمصاحبة البعثة الرسمية المكلفة بإيصال الكسوة الشريفة، وقد سلكت الرحلة نفس الطريق في الأراضي المصرية وكذلك بالباخرة حتى ميناء الحجاز (يقصد جدة) وهنا اختلف الأمر عن الرحلة السابقة حيث توجه الركب إلى مكة مباشرة ووصلوها في الثامن من شهر ذي الحجة، حيث أدوا بعد ذلك جميع مناسك الحج، وعادوا بعدها إلى مصر دون أن يتحدث بشيء عن مكة كما فعل في الحجتين الأولى والثانية.

وكانت الحجة الرابعة، وهي الأخيرة له، قد قام بها بمفرده عام اثنين وأربعين وأربعمائة للهجرة ، وذلك عن طريق أسوان والقلزم، وكانت فرصة سانحة لكي يقيم هذه المرة مدة ستة أشهر دون أن يكون مرتبطاً بالبعثة الرسمية المصرية كالرحلتين السابقتين. ونتيجة لطول الإقامة فقد أتيحت له الفرصة لكي يشاهد ويسجل ويزور كل الأماكن التي لم تتح له زيارتها من قبل، ولهذا جاء حديثه هذه المرة واضحاً مفصلاً.

وصفه لجدة :

وكان أول ما نزل، نزل بمدينة جدة، فحرص على وصفها وذكر انطباعاته عنها، ومما قاله: (جدة مدينة كبيرة ذات سور عظيم، تقع على ساحل البحر الأحمر، عدد سكانها في ذلك الوقت نحو خمسة آلاف نسمة، أسواقها نظيفة جيدة، ولا أثر للعمران خارج سور مدينة جدة، إلا مسجد يعرف بمسجد الرسول عليه السلام. ولسور جدة بابان، باب مما يلي مكة، وباب مما يلي البحر، وجدة بلد غير ذي زرع، وكل ما فيها يجلب إليها من ريف الحجاز، والمسافة بين جدة ومكة اثنا عشر فرسخاً، وأمير جدة أحد رعايا أمير مكة المكرمة، الذي يعد كذلك أميراً للمدينة).

وصفه لمكة عند دخوله لها :

غادر ناصر خسرو مدينة جدة يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، ووصل إلى مكة كما يقول يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة، فوجدها قد امتلأت بالعمار القادمين من كل أنحاء الحجاز واليمن، إذ أن شهر رجب من كل عام موسم عظيم تعج مكة بعمّارها وزوارها، وكذلك في رمضان وعيد الفطر، وإذا كان الحجاج من كل أطراف الأرض يفدون إليها في موسم الحج، فإن سكان أطراف الحجاز واليمن يؤمون مكة في كل الأوقات وبخاصة في هذه المواسم الثلاثة: غرة رجب، وعيد الفطر وعيد الأضحى وذلك لقرب مكة منهم!

بعد ذلك بدأ يصف مكة، وما يحيط بها من جبال، وما تضمه من أسواق، ومما قاله: " تقع مكة في واد تحيط به الجبال من كل جانب، لذا لا تبدو مكة واضحة لقاصدها إلا إذا اقترب منها، وأعلى جبالها جبل (أبي قبيس)، وأول ما تشرق الشمس في مكة يشاهد قرصها مطلاً على مكة من أعلى هذا الجبل.

وصفه للمسجد الحرام :

تحيط بالمسجد الحرام أسواق كثيرة، ودروب ضيقة تزدحم بالمتاجر وكلما كان أحد الدروب قريباً من جبل من الجبال، فإنهم يبنون عليه سقيفة، ويجعلون لها بوابة للدخول وأخرى للخروج. ويقع في الجانب الشرقي من الحرم سوق كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب، ويقع مدخل تلك السوق الرئيسي في الجهة الجنوبية التي في سفح أبي قبيس، أما الصفا فيقع تحت سقف أبي قبيس مباشرة، بل إن درجات الصفا جزء من صخور أبي قبيس. ويصعد الناس فوق درجات محاذية لتلك الصخور للبدء في مناسك السعي وتقع المروة في نهاية هذا الممر الطويل الذي يبدأ من الصفا، ويرى الساعي المتاجر عن يمنه وعن يساره خلال سعيه بين الصفا والمروة، والمروة أكثر ارتفاعاً من الصفا. وإذا أراد المرء أن يعتمر خرج من مكة، وبعد نصف فرسخ عنها، وهناك يجمع بين الحل والحرم، وفي هذه المواقيت مساجد عامرة يؤدي فيها العمار ركعتي إحرام العمرة: ولعله يقصد بذلك المقيمين بمكة الراغبين في أداء العمرة والاستعداد لها بالإحرام، أو الوافدين الذين اعتمروا عقب وصولهم من أوطانهم، ثم خلعوا ملابس الإحرام وأرادوا تأدية العمرة مرة أخرى، وجب عليهم الخروج إلى هذه المواقيت شأنهم شأن المقيمين، ويغتسلون ويرتدون ملابس الإحرام ويصلون ركعتي الإحرام، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الكعبة المشرفة لإتمام العمرة مرة أخرى.

بعد ذلك بدأ يشرح كيفية الإحرام، فقال: الإحرام يعني أن يتخلص الإنسان من الخيط، ويرتدي إزاراً لا خياطة به، والرداء مكون من قطعتين، إزار ورداء، يلتف بهما الإنسان ثم يرفع صوته بالدعاء قائلاً: (لبيك اللهم لبيك) ويتوجه بعد ذلك إلى مكة، فإذا وصلها دخل المسجد

الحرام وتوجه إلى الكعبة، وعليه أن تكون الكعبة على يساره، ويستلم الحجر الأسود، حيث يبدأ الطواف ويكرره على هذه الهيئة سبع مرات، يرمل في ثلاثة أشواط، ويسير الهوينا في الأشواط الأربعة الباقية. وعندما ينتهي الإنسان من نسك الطواف بالبيت الحرام، يتوجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام والمقام في مواجهة الكعبة، ويقف خلف المقام ويصلي ركعتي الطواف، وبعد الصلاة والدعاء يتوجه المرء إلى بئر زمزم، فإذا شرب من ذلك الماء المقدس وغسل وجهه ويديه، غادر البئر إلى باب الصفا، وهو أحد أبواب المسجد الحرام المؤدية إلى المسعى، وما أن يصل المرء إلى الصفا، يرتقي تلك الدرجات التي في السفح، ويستقبل القبلة داعياً، وينوي السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم ينحدر من الصفا إلى المروة، ويكون سيره من الجنوب إلى الشمال. وقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المكان، وأسرع، وأمر أصحابه بالإسراع حتى لا يظن بهم المشركون ضعفاً أو خوراً، ويهرول المرء مسافة خمسين قدماً في هذا المكان. وهذا المكان الذي هرول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر للعيان ومعلم بعلامات بارزة لا تخطئها العين.

ثم يتحدث بعد ذلك عما يفعله العمار والحجاج بعد السعي من تقصير للشعر، فقال: إذا نزل الساعي من المروة في نهاية السعي فإنه يرى سوقاً كبيراً، وفي هذا السوق أحصى ناصر خسرو عشرين دكاناً للحلاقة، يحلقون فيها ويقصرون شعور الحجاج والعمار، وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له: سوق العطارين، وهو سوق غاية في الجمال، وأكثر ما يباع فيه الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب. ويقدر ناصر خسرو سكان مكة فى زمانه بألفي نسمة، فيها

خمسمائة من الغرباء والمجاورين. وأخيراً ينهي زيارته لمكة المكرمة للمرة الرابعة محدداً المدة وتاريخ زيارته هذه قائلاً: هذه هي المرة الرابعة التي أزور فيها مكة، وقد مكثت بها مجاوراً من غرة رجب ٤٢٢هـ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠م) إلى العشرين من ذي الحجة (٣ مايو ١٠٥١م).

بعد أن أنهى ناصر خسرو مراسم الحج وأدى جميع مناسكه، غادر مكة متجهاً إلى اليمن، وبعدها بدأ يسجل وصفه للكعبة المشرفة، وغيرها من الأماكن المرتبطة بمناسك الحج، وهذا أهم ما قدمه في كتابه (سفرنامه)([١٦٣]).

ثالثاً: رحلة الإدريسي الى الحجاز وذكره لمكة :

وهي رحلة من الرحلات التاريخية الموثقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة، قام بها أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحموي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) الذي زار الحرمين الشريفين حينما كان في مصر وبلاد الشام، الى جانب رحلاته التي تحدث عنها المهتمون بحياته. ولا بد أنه اكتسب معرفة بأحوال البلاد وإحاطة بأهلها، وهذا كان وراء دعوته من قبل روجار الثاني لقاعدة صقلية. ولعل للظروف الدولية التي صادفت وجوده هناك،

---

163 – للاستزادة فى ذلك راجع : ناصر خسرو ، "سفر نامة" رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، ترجمة وتحقيق/ يحى الخشاب ، البنك العربى الدولى للمعلومات ، ١٩٩٣م .

أثراً في إهمال المعلومات التي أوردها عن مكة المكرمة([١٦٤])، والتي خفيت عن سائر الذين تناولوا تاريخ البلد الحرام .والمهم في هذه المرويات أنها تملأ فراغاً كبيراً مما شعرنا به في (العقد الثمين) و(شفاء الغرام) و(غاية المرام) وما كان يتبع هذه التآليف من (منائح الكرم) الى (تاريخ مكة) و (الحرم المكي) وغير ذلك مما كان الباحث يرجع إليه فيما توافر في مكتبته .فماذا عند الإدريسي من جديد في عهده عن مكة في كتابه المعلمة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ([١٦٥]) (الذي كتبه سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م ، من الملاحظ منذ البداية أن الإدريسي يتجنب الأساطير المروية عن هيّان بن بيّان. كما يلاحظ على العكس من ذلك، أن مكة المكرمة تظل عنده القطب الذي يحيل اليه حتى لو تحدث عن (أهل الصمّان الذين كتب لهم الفقر بأمان) ، وحتى لو كان حديثه عن قرية معدن النقرة التي يجتمع فيها حاج الكوفة والبصرة .

ثم إنه ما ينفك ذاكراً الحجيج ومسالكه الى مكة، وهذا يعبر عن تعلق الرجل بالمكان، ولو أنه أغفل الزمان. وهكذا نجده، وهو يتناول الجزء الخامس من الإقليم الثاني، يذكر ان فُرضة مكة هي جدة التي يذكر ان واليها كان تابعاً لشريف مكة الهاشمي، الذي يقصد به ــ دون شك ــ هاشم بن فليتة الذي تولى أمر مكة من سنة ٥٢٧ه / ١١٣٢م ، الى سنة

---

164 – أحمد سوسه، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، جـ ٢، بغداد: نقابة المهندسين العراقيين، ١٩٧٤م، ص ٢٧١، وما بعدها .

165 – محمد بن محمد الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي: المعهد الجامعي الشرقي، د. ت، تسعة أجزاء.

٥٥١هـ/ ١١٥٦م، فهاشم هذا هو الذي أقام الخطبة للعباسيين(١٦٦).
ويؤكد الإدريسي في (النزهة) أن الهاشمي شريف مكة هو الذي كان يقبض صدقات جدة ولوازمها ومكوسها ويحرس عمالتها. ولها ــ وهي فُرضة مكة ــ مراكب كثيرة تتصرف الى جهات كثيرة .

قول الإدريسى فى مكة :

يقول عن مكة في عهده: إنها قديمة أزلية البناء، مشهورة، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية، وإليها محجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة الى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب الى جهة الشمال، ومن أسفل جبل أجياد الى ظهر جبل قُعيقعان ميل . والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنيانها حجارة وطين، وحجارة بنيانها من جبالها . وذكر أن صاحب مكة كان يسكن في قصر له بالجهة الغربية بموضع كان يعرف بالمربعة على بعد ثلاثة أميال من مكة، وكان مبنياً من الحجارة، وتجاوره حديقة فيها نخيلات، وكثير من المقل (الدوم)، وكان بها جملة شجر منقولة إليها .

وصف الإدريسى للحرم :

وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف، وإنما هو دائر كالحظيرة. والكعبة، وهو البيت المسقف في وسط

---

166 – علي بن تاج الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: جميل عبدالله المصري، وآخرون، جـ ٢، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى: ١٩٩٨، ص ٢٤٥ .

الحرم، وطول هذا البيت من خارجه من ناحية الشرق أربعة وعشرون ذراعاً، وكذلك طول الشقة التي تقابلها في جهة الغرب(١٦٧) . وشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاع الباب على الأرض نحو قامة(١٦٨). وسطح الكعبة من داخل مساو لأسفل الباب . وفي ركنه الحجر الأسود، وطول الحائط الثاني الذي من جهة الشمال وهو الشامي، ثلاثة وعشرون ذراعاً، وكذلك الشقة الأخرى التي تقابلها من جهة اليمن . ومع أصل هذه الشقة موضع محجوز في دائر، وطوله خمسون ذراعاً، وفيه حِجْر أبيض يقال: إنه قبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس، وبئر زمزم، والقبة اليهودية. وما استدار بالكعبة كله حطيم يوقد فيه بالليل مصابيح ومشاعل. وللكعبة سقفان، وماء السقف الأعلى يخرج عنه الى خارج البيت في ميزاب من خشب . ويعتقد أن هذا الميزاب، الذي كان على عهد الإدريسي من خشب، هو نفسه ميزاب ابن رامشت الذي نقل السنجاري أن سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، شهدت وصول متقال، خادم الشيخ أبي القاسم بن رامشت صاحب الرباط المشهور، وصوله بعد موته بتابوته ومعه ميزاب كان قد عمله سيده للكعبة، فركب الميزاب(١٦٩). قال الشريف الإدريسي: وذلك الماء (النازل من الميزاب) يقع على الحِجْر الذي قلنا: إنه قبر إسماعيل .

---

167 – محمد بن عبدالله الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، ط٨، جـ١، مكة المكرمة: ١٩٩٦، ص ٢٨٩ .

168 – نفس المرجع السابق ، جـ١، ص ٣٠٧.

169 – نفس المرجع السابق ، جـ١، ص ص ٣١١ ـ ٣١٤.

والبيت كله من خارج ــ على استداراته ــ مكسو بثياب الحرير العراقية، لا يظهر منه شيء، وارتفاع سمك البيت المذكور سبعة وعشرون ذراعاً. وهذه الكسوة معلقة فيه بأزرار وعرى، وصاحب بغداد المسمى بالخليفة يرسلها في كل سنة اليها فتكسى بها، وتزال الأخرى عنها، وهذا مهم، ولا يقدر أحد أن يكسوها غيره !

ومن خلال هذا النقل الذي كان معاصراً تقريباً لهذه المعلومة، نستفيد أن ما قاله التقي الفاسي: (وفي سنة خمسمئة واثنتين وثلاثين كسا الشيخ أبو القاسم بن رامشت الكعبة)، كان يعني أن أبا القاسم المذكور كان يعمل لحسابه الخاص بتواطؤ مع هاشم بن فُلَيتة .

وقد حدث أن جرؤ الهاشمي هذا سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، على نهب ركب الحاج العراقي بالحرم الشريف وهم يطوفون بسبب حدث وقع بين هاشم وأمير الحاج العراقي، فكان هذا سبباً لرد فعل من المقتفي الخليفة العباسي في بغداد (٥٣٠ ــ ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ ــ ١١٦٠م) تجلى في إنفاذ الخليفة المذكور ميزاباً جديداً عوض ميزاب ابن رامشت. وفي السنة نفسها عمّر سقف الكعبة، والدرجة التي يصعد منها الى سطحها(١٧٠).

ويتحدث الإدريسي عما يذكره أهل الخبر من أن الكعبة كانت خيمة لآدم عليه السلام، قبل أن يهدمها الطوفان، وتأتي مدة إبراهيم وإسماعيل التي شهدت إعادة البنيان.

---

170 – السنجاري، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧.

ذكر الإدريسى عن مصادر المياه :

كل ما ذكره عن المياه أنها لم تستتم إلا في أيام المقتدر من بني العباس (٢٩٥ ــ ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ ــ ٩٣٢م) وأن مياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤها شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه، وأن ليس بجميع مكة شجر ثمر إلا شجر البادية .

ذكر الإدريسى عن الأمن :

ويتحدث عن الناحية الأمنية في البلاد، حينذاك فيقول: وليس للهاشمي شريف مكة عسكر خيل، وإنما معسكره رحالة لا خيل لهم، وتسمى رجّالته (الحرابة). ثم يصف شريف مكة، فيقول: ولباسه البياض والعمائم البيض، وهو يركب الخيل، وسياسته حسنة، وحكمه عدل، وإنصافه ظاهر، وإحسانه غدق على قدر إمكانه . والرجل في حديثه عن المسالك التي تصل مكة بالمدينة لا يقتصر على المسلك الواحد، ولكنه يعدد الدروب لتختار منها ما تشاء. وهو في هذه الأثناء يشير الى ما تأكد عندنا من أنه شاهد عيان، يشير الى نمط من الناس سمة الشقاء عليهم بادية .

وقال: ولمكة موسمان، ينفق فيهما كل ما جلب اليها: أحدهما أول رجب، والآخر موسم الحجيج. ولأهل مكة أموال صامتة وأحوال فاشية، ودواب وجمال، كما أن لمكة مخاليف وهي الحصون. ولا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد. والتمر يأتي إليها كثيراً مما حولها، والعنب يجلب إليها من الطائف (التي ينعتها بالمدينة المتحضرة) التي تأتي منها أكثر فواكه مكة، ويضرب المثل بجودة بغالها. والغالب على

ضعفاء أهل مكة الجوع وسوء الحال. وإذا خرج أحد عن مكة في كل جهة تلقاه أودية هنا جارية وعيون مطردة، وآبار غدقة، وحوائط كثيرة، ومزارع متصلة .

موارد مكة عند الإدريسى :

وفي معرض حديثه عن المدينة المنورة قال: إنها تقع في مستوى من الأرض، وإنها حارة سبخة، كان عليها سور قديم، وبخارجها خندق محفور، وهي الآنفي [في حين تأليف الكتاب في شوال ٥٤٨هـ/ يناير ١١٥٤م] عليها سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة الغازي، ونقل إليها جملة من الناس، ورتب المسير إليها. وحولها نخل كثير وثمرها حسن .وشرب أهلها من نهر صغير، يأتي إليها من جهة المشرق، جلبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجاء به اليها من عين كبيرة الى شمال المدينة، وأجراه بالخندق المحتفر بها .ومقدار مدينة يثرب على قدر نصف مكة، وفُرضتها هي (الجار) وهي قرية آهلة عامرة .

تميز الإدريسى بإقران مكة بما يصف من أماكن :

ووصف الإدريسي مكة على نحو ما وصف به مدينة سبتة مسقط رأسه، وعلى نحو هذا وجدناه يصف المسجد الأقصى بأنه ليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع بقرطبة في ديار الأندلس .

ظلت مكة محور حديث الإدريسي، حتى عندما تحدث عن مدينة أودغشت في إفريقية الغربية عندما قال: إنها مدينة بين جبلين على نحو

مكة. وعندما قارن في آسيا بين مكة ومدينة الجُرزوان التي تقع هي كذلك بين جبلين .

وهكذا فإن الباحث يرى أنه على مثل اليقين، إن لم يكن اليقين كله، من أن الإدريسي ــ بهذه المعلومات ــ سجل رحلته الى مكة، وأنه إذا لم يذكر طوافه وسعيه ووقوفه بعرفات، وإذا لم يذكر من لقيه من الرجال، ومن زودوه بالمعلومات، فلأنه يحترم موضوع التأليف الذي كان مخصصاً بالدرجة الأولى للشأن الجغرافي الصرف، على الرغم من أنه ــ مع ذلك ــ لم يستطع أن يحمي نفسه من ذكر حركة العمران بمكة المكرمة، وذكر رجال النفوذ بها، وذكر الحالة الإقتصادية والإجتماعية .

فإذا أضيف الى كل هذا أنه كان يتحدث الى الملك روجار الثاني الذي لم يكن يشاطره في المعتقد ولا في الهوية، حينئذ تتضح طريقة الإدريسي في أدائه لهذه الرحلة التي رأى الباحث أن من واجبه أن يذكرها في صدر الرحلات التي أسهمت، وبصفة واضحة، في التعريف بأم القرى، وما كان حديثاً يفترى([171]) .

رابعاً : رحلة ابن جبير إلى مكة ووصفه لها:

---

171 – محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي ،نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م ، تم دمج المجلدين للتسلسل ، تاريخ إضافته: ٢١ / ١١ / ٢٠١٢

يعد ابن جبير([172]) من النماذج المميزة والخاصة للرحالة والجغرافيين الذين رحلوا إلى مكة وزاروها وكتبوا عنها لأسباب منها :

* الشغف العارم لزيارة مكة من قبل ابن جبير [173] . فيذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر وكافأه على ذلك بسبعة كؤوس مملوءة بالدنانير ، ومن ثم عزم ابن جبير على أن يحج إلى بيت الله الحرام تكفيراً على خطيئته ، ولذلك نبتت عنده فكرة الرحلة شكل (١٧) ، وبدأت رحلته من غرناطة بالأندلس فى يوم الخميس الثامن من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ أو الثالث من فبراير (شباط) سنة

---

172 – هو: محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير من بني ضمرة من قبيلة كنانة المضرية العدنانية. المعروف باسم ابن جبير الأندلسي ولد في فالنسيا سنة ٥٤٠ هـ، ١١٤٥م، هو جغرافي، رحالة، كاتب وشاعر أندلسي عربي. وكان من أسرة عريقة سكنت الأندلس عام ١٢٣ هـ، أتم حفظ القران الكريم، ودرس علوم الدين وشغف بها وبرزت ميوله أيضا في علم الحساب والعلوم اللغوية والادبية واظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا. تعلم على يد ابيه وغيره من العلماء في عصره ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السر فاستوطن غرناطة. وكان الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو يشرب الخمر، فأرغم ابن جبير على شرب سبعة كئوس من الخمر وأعطاه سبيعة اقداح دنانير، لذلك صمم ابن جبير على القيام برحلة الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته واق امن في سفره سنتين ودون مشاهداته وملاحظاته في يوميات عرفت برحلة ابن جبير، وسميت باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" والذي كتبه حوالي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م وتداوله الشرق والغرب حتى قام المؤرخ والمترجم الانجليزى ويليام رايت بنشره وطبعه في كتاب جمع عدد كبير من الرحلات لرحالة وحجاج عرب وأجانب مسلمين ومسيحيين ويهود عرف باسم " Early travelers in Palestine

173 – أبو الحسن محمد بن جبير الكنانى البنسى ، ويعد من أبرز الرحالة المسلمين العرب الذين سجلوا أخبار رحلاتهم بدقة ، وقد اشتهر بتفوقه فى كتابة النثر والشعر ، وكان موطنه الأندلس .

١٠٨٢م قاصداً برحلته آداء فريضة الحج المفروضة عليه ، جاء إلى الإسكندرية بحراً من الشاطئ الغربى للبحر المتوسط ، وأقام بها ووصف معالمها وتحدث عنها كثيراً ، ثم اجتازها إلى القاهرة وأقام بها ، ومنها انتقل على بحر النيل إلى مدينة قوص ، فبراً إلى ميناء عيذاب الذى امتطى منه سفينة بحرية صوب مدينة جدة ، ودخل مدينة جدة فى عهد الأمير مكثر بن عيسى أمير مكة ، ووصفها وصفاً شاملاً أصاب فى أكثره [١٧٤] . وأقام بعد ذلك بمكة عدة أشهر ورحل للعراق والشام ، ووصل عائداً إلى وطنه فى ٥٨١هـ ، وخلف ما يسمى (رحلة ابن جبير) واصفاً الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمناطق التى قام بزيارتها وصفاً دقيقاً [١٧٥] .

شكل (١٧) رحلة ابن جبير ٥٧٨هـ/١٠٨٢م – ٥٨١هـ/١٠٨٥٤م.

174 – عبد القدوس الأنصارى ، الجزيرة العربية فى رحلتى ابن جبير والعبدرى ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، جامعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٢٧.

175 – انظر ، ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٩٧ وما بعدها .

* أقام ابن جبير ثمانية اشهر وبضعة أيام بمكة المكرمة ، وتعد هذه المدة التى قضاها ابن جبير بمكة هى أطول إقامة قضاها فى بلد رحل إليها طيلة رحلته ، ولذلك كان ابن جبير على درجة من التمكن فى وصف أشياء وأمور بلد الله الحرام ، ورحل عنها بعد ان أشبع عاطفته الدينية الحارة والمشبوبة من طول المقام بمكة ، واتجه صوب الشمال قاصداً المدينة المنورة ، وكما كان دخول ابن جبير مكة المكرمة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ كان خروجه منها أيضاً إلى المدينة المنورة يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٥٧٩هـ [١٧٦].

أهم معالم مكة الجغرافية فى رحلة ابن جبير :

وصف ابن جبير معالم مكة المختلفة فى العمران والعمارة والأودية والاستهلاك والتجارة وغيرها من المجالات وذلك كما يلى :

* ففي مجال العمارة والعمران : كان أول المشاهد التى وصفها ابن جبير من مشاهد مكة المكرمة هى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، فوصف مبانيه وأرضه وأبوابه ومآذنه وماء زمزم وعن المسجد الحرام فقد نقد ابن جبير الخرافة المتداولة إلى عهد قريب ، وهى أن عتبات باب السلام من أبواب المسجد الحرام بمكة هى من أصنام قريش التى كانت تعبدها فى الجاهلية وبينها كبيرها هبل ، فقد نقد ابن جبير هذه الخرافة بقوة وإصرار ، ومن دلائله أن النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة كان قد أمر بتكسير الأصنام وبإحراقها ، وجزم بأن هذه الحجارة المستطيلة الملص الزيتونية اللون التى هى من عتبات باب السلام هى منقولة إليه من جبال مكة وإنما شبهها القوم بالأصنام لعظمتها [١٧٧] .

---

176 – رحلة ابن جبير ، ص ١٦٠ .

177 – رحلة ابن جبير ، ص ٨٥ – ٨٦ .

* وصف جبال وأودية مكة : وصف ابن جبير جبال مكـــة وأوديتهـــا ، وعدد جبال مكة المأثورة ، ومما عنى بوصفه من جبال مكة المـــأثورة ، جبلا أبى قبيس وحراء ، وعن حراء قال : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم قال : وهو على ظهره : اسكن فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ، وذكر ابن جبير من آثار مكة دار الخيزران(١٧٨) ، والتى كانت تعرف فى صدر الإسلام بدار الأرقم بن أبى الأرقم والتى تقع قرب سفح جبـــل الصفا بمكة (١٧٩) .

---

178 – دار الجيزران هى دار الأرقم وهي الدار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فيها ليعلم أصحابه تعاليم الدين في بداية الدعوة، وكانت عند الصفا، وكانت للصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد بن عبد الله بن عمر المخزومي وأمه أميمة بنت الحارث. ودُعيَت دارُ الأرقم بعد ذلك بدار الإسلام، ولهذه الدار قصة طويلة ذكرتها كتب التاريخ ملخصها: أن الأرقم رضي الله عنه تصدق بها قبل وفاته على ولده، وجاء في نسخة الصدقة. بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصفا، إنها محرمة بمكانها من الحرم، لا تباع ولا تورث، شهد هشام بن العاص، وفلان مولى هشام بن العاص. فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها ولده يسكنون فيها ويؤاجرون حتى كان زمن أبي جعفر المنصور فإنه حج في إحدى السنوات، وبينما هو يسعى رأى تلك الدار فوقعت في نفسه، ثم بعد زمن ساوم أحد أحفاد الأرقم على بيعها وهو عبد الله بن عثمان بن الأرقم وكان مسجوناً عنده في قصة يطول ذكرها، فساومه على بيعها مقابل أن يخلي سبيله، فتنازل له عن حقه وكتب عليه كتاب شِرىً على حساب سبعة عشر ألف دينار وتتبع إخوته –وكانوا له شركاء في الدار– ففتنتهم كثرة المال فباعوها له، فصارت لأبي جعفر ولمن أقطعها. ثم صيَّرَهَا المهدي للخيزران أم موسى وهارون فبنتها وَعُرِفَتِ الدار بها فصارت تسمى دار الخيزران، ثم صارت لجعفر بن موسى أمير المؤمنين، ثم سكنها أصحاب الشَّطْوِي والعَنَني، ثم اشتراها غسان بن عباد من ولد موسى بن جعفر وهكذا. وهي الآن خبر بعد عين دخلت في حدود المسعى.

179 – رحلة ابن جبير ، ص ٩٢ .

وقد أمعن ابن جبير النظر والصف لأودية مكة ، مثل وادى بطن مـــر ، فقال عنه أنه يقع إلى الشمال من مكة بمسافة ستة عشرة ميلاً ، وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء ، تسقى منها الأراضـــى الزراعية الواقعة فى تلك المنطقة ، وتقع على هذا الوادى قـــرى كثيـــرة وعيون غزيرة ، من أشهرها عين البرقة ، التى عرفت المنطقة باســـمها وهى مقر الأمير شكر بن ابى الفتوح ، أمير مكة مع جيش خاص به .

وتجاور بطن مرعدة أودية ومناطق زراعية كعـــسفان والبـــرزة وكليـــة وخليص ، وجميعها تشتهر بزراعة الخضار والحبوب والنخيل ، وكـــان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة المكرمة تروى بماء العيون كعين سليمان وغيرها ، وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية وقد عمل المكيون على استقدام عمال من المغاربة مـــن ذوى البـــصارة بالفلاحة والزراعة ، فاستطاعوا أن ينهضوا بالزراعة فيها وان يحـــدثوا بها كثيراً من البساتين والمزارع "فكانوا أحد الأسباب فى خـــصب هـــذه الجهات" (١٨٠) .

* ووصف ابن جبير صفات الناس وطبائعهم : فقد شاهد ابن جبير طائفة من أهل جبال السراة يقدمون إلى مكة فى موسم الحـــج ومعهـــم قوافـــل الأرزاق والفواكه والشمل (نوع من العبى منسوج من الصوف الثقيـــل) فأبدى سروره وإعجابه بذلك . ووصف هؤلاء القوم البسطاء كما شاهدهم ، كما وصفهم بالشجاعة والنجدة والمروءة . وكان فقيه من فقهاء الـــيمن قد حدث ابن جبير عن هؤلاء القوم السرويين المـــائرين لمكـــة ، بـــأنهم ينسبون إلى سراة الرجال ، وهو قول يجانبه الصواب فإن هؤلاء القـــوم إنما ينسبون إلى "السراة" وهى سلسلة الجبال الممتدة من جنوب المملكـــة

180 – رحلة ابن جبير ، ص ٩٨ وما بعدها .

العربية السعودية إلى الشمال والمعروفة من قديم باللغة العربية بهذا الاسم التاريخى الشهير [١٨١] .

* وصف ابن جبير للأسواق بمكة : فكان السوق حول الحرم يمتد فى معظمه على جانبى المسعى من الصفا إلى المروة ، وما يسمى السعى بين الصفا والمروة هو السعى فى هذه السوق من أولها لآخرها .

وفى أيام المواسم ، فيغدو المسجد الحرام كله سوقاً يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة بنى شيبة ، وتباع بقية الأشياء حول الحرم فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشرق ، وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الجنوب .

كما كان سوق آخر يعمر فى أيام الموسم بالأخص فى أيام التشريق ، وهو سوق منى ، وتقع منى على فرسخ من مكة ، وهى جزء من الحرم ، طولها ميلان ، وهى تعمر فى الموسم وتخلو بقية السنة ، وهى عبارة عن أزقة ضيقة والمسجد فى الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها آبار ومصانع وقياسير بينهما ، وكان بمنى حوانيت حسنة البناء قد بنيت بالحجر وخشب الساج ، ومنى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخرز إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق [١٨٢] .

وتجدر الإشارة فى هذا الأمر إلى أنه حينما شاهد ابن جبير الناس يجعلون من المسجد الحرام بمكة سوقاً تجارية للبيع والشراء ، غضب وصب جام غضبه على هذا الصنيع الذى لا يتفق مع الشرع الحنيف ،

---

181 – عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .

182 – رحلة ابن جبير ، ص ١٢٣ وما بعدها .

فالمساجد تبنى لعبادة الله وحده ، وأما البيع والشراء فمحلهما الأسواق خارج محيط المساجد المقدسة [١٨٣] .

* رأى ابن جبير فى خبر المكوس : كانت تطلق على ضريبة المكس على الجباية أو ما يأخذه العشار ، ويقال له الماكس وفكرة فرض المكوس قديمة وقد أبطل الإسلام المكس بأنواعه ، فقد جاء فى الحديث (لا يدخل الجنة صاحب مكس) [١٨٤] . ثم فرضت الزكاة عوضاً عنه ، إلا أن المكوس عرفت بمكة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ، على أن أقدم إشارة صريحة عن جباية المكوس من الحجاج كانت فى سنة ٣٢٧هـ [١٨٥] . كما أن هذا المكس لم يلبس أن تضاعف فى عهد الأمير محمد بن ابى هاشم أمير مكة ، فقد كان يؤخذ على كل حمل جمل يجتاز القرين مبلغ دينار علوية وفى ظل هذه الظروف قد صب ابن جبير جام غضبه على أمير مكة وطالب بإيقاف ما كان يأخذه من الحجاج بالقوة بل وإبعاده عن إمارة مكة قائلاً : "فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من حل عرى الإسلام واستحلال أموال الحجاج ودمائهم"

* قول ابن جبير فى خيرات وموارد مكة : جاء فى رحلة ابن جبير تحت عنوان "ما اختص الله تعالى به مكة" لتبيان ما تضمنه هذا البلد من خيرات فقال عن مكة : إنها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى إليها من كل مكان ، فهى أكثر البلاد

---

183 – عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .

184 – أبو داوود ، السنن ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٩ .

185 – احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر . وبمقارنة ما وجده ابن جبير في مكة بما ظن أن الأندلس اختصت به من الوان الفاكهة وأنواع الأطعمة . ذكر يقول : وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات ، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألقيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار ، إلى جميع البقول كلها : كالبازنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب ، إلى سائرها ، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة ، وأكثر هذه البقول كالبازنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها في سائر البلاد ، فالعجب من ذلك يطول فقد ربط ابن جبير الانتعاش الاقتصادي ووجود الخيرات الكثيرة في مدينة مكة بالتجارة وما يرد إليها من أماكن قريبة كالطائف ، وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها ، أو من بقاع بعيدة كاليمن والشام ، ويقول ابن جبير : وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبة لا شك فيه والخبر عنه يضيق عن الخبر له ، والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام ، وتمنى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الركام بعزته وقدرته ، وذكر ابن جبير أوصاف الحياة الرغدة في مكة المكرمة في سنة زيارته لها "وتميزها عما سلف من السنين حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها" وقال ابن جبير : ومن صنع الله الجميل وفضله العميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها ، وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة

المتلصصين فيها على الحجاج ، المختلسين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم إلا أخذ يد القميص ، فكفا الله هذا العام شرهم إلا القليل ، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم ، وبطيب هوائها فى هذا العام ، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها ، وانكسار حدة سمومها ، وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه . وذلك أمر مستغرب بمكة .

ومن بين الأشياء الأخرى التى استدعت الانتباه فيما ورد من قول ابن جبير فى هذا المقام مسألة العمالة الوافدة إلى مكة وغيرها من البلاد الحجازية نتاج الزرع والمأكل والمشرب . كتب ابن جبير يقول : وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب ، وكل ما يصنع منها من السمن ، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ، ويجلب إليها قوماً من اليمن يعرفون بالسرو نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر فى نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيراً [١٨٦].

---

186 – رحلة ابن جبير ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٩٧ : ١٠٠ .

خامساً : ذكر ابن بطوطة عن مكة :

تناول ابن بطوطة"[187]" وصف مكة بتفصيلات دقيقة وشيقة بداية من ذكر مدينة مكة المعظمة والمسجد الحرام شرفه الله وكرمه و ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما ، و ذكر الميزاب المبارك و ذكر الحجر الأسود و ذكر المقام الكريم و ذكر الحجر والمطاف و ذكر زمزم و ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة و ذكر الصفا والمروة و ذكر بعض المشاهد خارج مكة ، و ذكر الجبال المطيفة بمكة و ذكر أميري مكة و ذكر أهل مكة وفضائلهم و ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحائها و ذكر المجاورين بمكة و ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم و ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة و ذكر عاداتهم في استهلال الشهور و ذكر

---

187 – محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بَـطُوطَة (ولد في ٢٤ فبراير ١٣٠٤ – ١٣٧٧م بطنجة) (٧٠٣ – ٧٧٩هـ) هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي لقب بـأمير الرحالين المسلمين. خرج من طنجة سنة ٧٢٥ هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا. وإتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم – وكان ينظم الشعر – واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشرت بها، وترجم فصول منها إلى الألمانية نشرت أيضا. كان يحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥-١٣٥٢م) ومات في مراكش سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٧م حيث يوجد ضريحه بالمدينة القديمة. تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بـأمير الرحالة المسلمين الوطنيين. في أول رحلة له مر ابن بطوطة في الجزائر وتونس ومصر والسودان وفلسطين وسوريا ومنها إلى مكة.

عادتهم في شهر رجب و ذكر عمرة رجب و ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان و ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم و ذكر عادتهم في شوال و ذكر إحرام الكعبة و ذكر شعائر الحج وأعماله و ذكر كسوة الكعبة و ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى ، وقد حرصنا على عرض جزء منها كما هو دون تغيير على النحو التالى :

ذكره مدينة مكة المعظمة:

يقول ابن بطوطة : وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة، في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال الملطة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان، وهو في جهة الغرب منها، وفي الشمال منها الجبل الأحمر. ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر، وأجياد الأصغر، وهما شعبان والخندمة، وهي جبل، وستذكر. والمناسك كلها: منى وعرفة والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها، ويعرف أيضا بباب العمرة، وهو إلى جهة المغرب، وعليه طريق المدينة الشريفة، ومصر والشام وجدة. ومنه يتوجه إلى التنعيم، وباب المسفل، وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم فتح مكة شرفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع. ولكن سبقت لها الدعوة المباركة، فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبى لها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم. وكل ما

يفترق في البلاد من السلع، فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر، لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق.

ذكره المسجد الحرام شرفه الله وكرمه:

يقول ابن بطوطة : والمسجد الحرام في وسط البلد. وهو متسع الساحة. طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع، حكى ذلك الأزرقي، وعرضه يقرب من ذلك. والكعبة العظمى في وسطه. ومنظره بديع. ومرآه جميل. لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله. وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا؛ وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف، بأتقن صناعة وأجملها. وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية ما عدا الجصية التي في دار الندرة المزيدة في الحرم، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال. ويقابلها المقام مع الركن العراقي. وفضاؤها متصل، يدخل من هذا البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون. وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها. وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا. وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية. وللخليفة المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه. وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة.

ذكره الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما:

يقول ابن بطوطة : والكعبة مائلة في وسط المسجد، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبرا والطواف إنما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجر الصم السمر، وقد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشده، فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجاب الدعاء.

وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار، وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة، وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل، ويستطرد قائلاً : وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين ألاخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين

العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود، مكتوب فيها بالأبيض، وهي تلألأ عليها نورا وإشراقا، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح، والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير، لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

ذكره كسوة الكعبة :

قال ابن بطوطة : وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في إسبالها على الكعبة الشريفة. وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية. وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كيست شمرت أذيالها صونا من أيدي الناس. والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الأيام تفتح الكعبة

الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة، وربما وجدوا إنسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة، لكثرة ما تصدقوا به من الذهب. وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم.

ذكره الحجر الأسود :

يقول ابن بطوطة : وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال: إن القرمطي لعنه الله كسره وقيل: إن الذي كسره سواه، ضربه بدبوس فكسره، وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتنجلي منه العيون حسنا باهرا، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه، وعناية ربانية به وكفى قول النبي صلى الله عليه وسلم إنه يمين الله في أرضه ، نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق إليه. وفي القطعة الصحيحة من الحجر

الأسود، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة، كأنها خال في تلك الصحيفة البهية .

ذكره الحجر والمطاف:

قال ابن بطوطة : ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر. وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان. وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا، وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي، وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته، كما جاءت الآثار الصحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامي، وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأبعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا في الجهة التي تقابل المقام الشريف، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة"[188]".

---

188 – ابن بطوطه ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار/الجزء الأول/ ، مرجع سبق ذكره ، صفحة: ٦٢

ذكره زمزم:

قال ابن بطوطة : وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة. ومن ركنها إليه عشر خطا. وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتنور البئر المباركة في وسط القبة، مائلا إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة. وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص. ودوره أربعون شبرا، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارات بداخل سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل لك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه، وبابها إلى جهة الشمال. وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق، وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء، فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة، والكتب التي للحرم الشريف وبها خزان تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما. وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف، وفتحوا باب الكعبة، ووضعوه على العتبة الشريفة، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه وسلم، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه.

ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية.

ذكره الصفا والمروة :

قال ابن بطوطة : ومن باب الصفا الذي هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله اربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة، وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة، والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا، وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه.

ذكره بعض المشاهد خارج مكة :

قال ابن بطوطة : فمنها الحجون وقد ذكرناه، ويقال أيضا: إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب، وهو أيضا الأبطح، وهو يلي الجبانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى

الله عليه وسلم، ومنها ذو الطوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرام. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك. ومنها ثنية كدي بضم الكاف، وهي بأعلى مكة، ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كداء بفتح الكاف، ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الوداع، وهي بين جبيلين. وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق، وكل من يمر به يرجمه بحجر. ويقال: إنه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب.

وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن منى، وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بإزائه حجر موضوع على الطريق كأنه مصطبة يعلوه حجر آخر، كان فيه نقش فدثر رسمه. يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته. فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه. ومنها التنعيم، وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتمر أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرام، ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وأمره أن يعمرها من التنعيم.

وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها. وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كنسه في كل يوم

رغبة في الأجر والثواب. لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافيا. وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة، ومنها الزاهر، وهو على نحو ميلين من مكة، على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق. وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء، يملأها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهي بعيدة القعر جدا. والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء، وذو طوى يتصل بالزاهر.

ذكره الجبال المطيفة بمكة :

قال ابن بطوطة : فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله، وهو أحد الأخشبين، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله، ويقابل ركن الحجر الأسود. وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة. وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره. وهو مطل على الحرم الشريف، وعلى جميع البلد. ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة. ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان. وكانت قريش تسمية الأمين لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام. ويقال: إن قبر آدم عليه السلام به. وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر.

ومنها قعيقان، وهو أحد الأخشبين، ومنها الجبل الأحمر، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله، ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين

المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز، عليه أعلام من حجارة، ومنها جبل حراء، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها، وهو مشرف على منى، ذاهب في الهواء عالي القنة. ومنها جبل ثور، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله، ومعه الصديق رضي الله عنه .

ذكره أهل مكة وفضائلهم :

قال ابن بطوطة : ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم. فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار

الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على ما أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتزي بقوتها طيبا. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا. ولأهل مكة عوائد حسنة وغيره سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

ذكره عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم :

قال ابن بطوطة : فمن عاداتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع. وجمهور الناس بمكة على مذهبه. والحطيم خشبتان موصول ما بينها بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتهما، وقد عقدت على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج. فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر

الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاربيهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو تخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي. وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو"[١٨٩]".

سادساً : مكة المكرمة كما ذكرها الرحالة الفرنسي المسلم " جيل – جرفيه كورتلمون ":

لكثير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم، يدٌ طُولى في إبراز معالم جزيرة العرب، وفي كشف ما خفي من آثارها، فضلًا عن ما لهم من فضلٍ في إحياء التراث الإسلامي، والشرقي، بوجه عام . وهناك فئة من هؤلاء الغربيين هي فئة الروّاد من العلماء والمغامرين الغربيين، الذين كشفوا كثيرًا من معالم جزيرة العرب وآثارها، وعرفوا المجهول من مختلف أخبارها وأحوالها، بعد أن جاسوا صحاريها، واخترقوا فيافيها وقفارها، ووصلوا إلى أصقاعها النائية، وتوغلوا في مجاهلها، مدفوعين بدوافع مختلفة، مستهينين في سبيل ذلك بجميع الأخطار والصعوبات، مهما بلغت من شدة وعنف، ضاربين أروع الأمثال بصبرهم وجلدهم، وتحملهم لنمط من حياة الشظف والقسوة، قلّ أن يستطيع ابن الصحراء

---

189 – ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٩-٧٥ .

نفسه أن يجاريهم في تحمّله في هذا العصر" (١٩٠). أحد هؤلاء الرحالة الغربيين هو الفرنسي "جيل – جرفيه كورتلمون" (١٩١) ؛ الذي أسلم وسافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وكذلك إلى المدينة المنورة

190– قدرى قلعجي ، اكتشاف جزيرة العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، (٢٠٠٦)، ص ص٥-٦.

191– ولد الرحالة الفرنسي كورتلمون في "أڤون" في ١٥ من محرم عام ١٢٨٠هـ الموافق الأول من يوليو عام ١٨٦٣م، وهو الولد الوحيد لأبيه لويس فكتور جرفيه، كان أبوه ميسور الحال وكانت أمه ربة بيت، لما مات والد جيل سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٨م تزوج ابن صديق الأسرة أرملة جرفيه، والدة جيل. غادرت الأسرة كلها للعيش في الجزائر سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٤م، عنده حب الاستطلاع، فشرع في الاهتمام بالإسلام، هذه الديانة التي كانت تحيط به من كل جهة في حياته منذ وصوله إلى الجزائر. في هذه الفترة كانت توجد في الجزائر جمعية كبيرة يطلق عليها اسم: جمعية كونكورديا، تضم الأدباء والمثقفين، وأغلب أعضائها من علية القوم في الجزائر، ويصبح كثير من أعضائها من كبار الصحافيين في الجزائر وباريس، ومن المختصين في المعاملات التجارية الكبرى وغير ذلك. عقد "جيل" صداقات مع عدد من أعضاء هذه الجمعية، وعرف كيف يستغل هذه الصداقات. وكان جيل قد ارتبط قبل ذلك مع زوج أمه بعلاقة قوية لدرجة أنه قرر أن يحتفظ باسمه، وأصبح يوقع باسم جرفيه – كورتلمون. وأحيانًا كثيرة يوقع بكورتلمون فقط. كما أن زوجته "هيلين" أصبحت تعرف باسم السيدة كورتلمون. وكان كورتلمون محبًا للترحال، فسافر إلى مناطق مختلفة من الجزائر والقاهرة والقدس ودمشق، وعاد بزاد من الصور التي نشرها في مجلته، أو عرضها للبيع في معرضه في شارع الألوان الثلاثة بمدينة الجزائر العاصمة. تزوج من ابنة أحد أصدقائه (هيلين) قبيل رحلته إلى مكة المكرمة وأنجب منها بعد عودته ولدًا سمّاه عبدالله، ثم قام برحلة إلى إقليم التبت (يونان) في الصين عام (١٣١٩هـ/١٩٠٢م) ونشر مسترد رحلته إليها في كتاب تحت عنوان «رحلة اليونان» عام (١٣٢١هـ/١٩٠٤م) واستغرقت تلك الرحلة أكثر من سنة. وبعد عودته من يونان ذهب إلى باريس، وفتح معرضًا لبيع الصور الملونة التي كانت تعد من أحدث التقنيات في ذلك العصر. وكان يلقي محاضرات عن رحلته وخاصة رحلته إلى مكة المكرمة ويعرض صور تلك الرحلات. سافر إلى تركيا مرةً بمفرده والأخرى مع زوجته عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ثم ذهبا معًا إلى تركيا مرةً أخرى عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م).

للصلاة في المسجد النبوي الشريف والتشرف بالسلام على رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم، وكتب عن رحلة حجه كتابًا بعنوان "رحلتي إلى مكة المكرمة".

وكان انتشار الوباء خلال رحلة كورتلمون إلى مكة المكرمة قد منعه من زيارة المدينة المنورة للصلاة في مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والتشرف بالسلام عليه، لذا فقد عمل المستحيل للتوجه على متن القطار إلى المدينة المنورة من أجل التقاط الصور الملونة للمسجد النبوي الشريف على وجه الخصوص، والمدينة المنورة على وجه العموم ([192]).

خط سير رحلة كورتلمون إلى مكة المكرمة:

تقدم كورتلمون بطلب بعثة علمية إلى وزارة التربية العامة، ولكن وزارة الخارجية التي استشيرت في الموضوع رفضت ذلك الطلب ونصحته بالتراجع عن مشروعه للسفر إلى مكة المكرمة فتقدم كورتلمون بطلبه إلى الحاكم الفرنسي العام في الجزائر، الذي وافق على ذلك ولكن على مسؤولية صاحب الطلب الخاصة. وتم إعطاؤه جواز سفر باسم عربي هو

---

192 – عايش كورتلمون إنشاء سكة حديد دمشق – المدينة المنورة. وقد اشتغل في هذه السكة خمسة وخمسون مهندسًا تركيًا، بالإضافة إلى مهندسين غربيين: أحدهما فرنسي والآخر ألماني، كما تمت الاستعانة بنحو سبعة آلاف جندي من الجيش التركي، وقد كلف ذلك المشروع ٩٣ مليون فرنك فرنسي، ويبلغ طول السكة ١٣٠٠ كلم، وقد دشنت مع نهاية فصل صيف سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م). وفي أوائل سبتمبر عام (١٩١٠م) استقل كورتلمون القطار مع أعضاء لجنة تنظيمية كان قد تقرر إرسالها لحضور حفل تدشين محطة سكة الحديد بالمدينة المنورة. وقد قام كورتلمون بالتقاط صور كثيرة منها صور للمسجد النبوي الشريف، وهي من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في المتحف السينمائي روبير لينين في مدينة باريس . وفي عام (١٣٣٠هـ – ١٩١٢م) سافر كور تلمون إلى الهند والتقط كثيرًا من الصور الملونة لما كان يظن أنه مفيد فني .

(عبدالله بن البشير) . سافر كورتلمون بعد ذلك إلى فرنسا لإجراء بعض الترتيبات، ومن هناك توجه إلى السويس لمرافقة قافلة المحمل المصري مع بعض أصدقائه. إلا أن ظروفًا أجبرته على التأخر عن ذلك الموعد والعودة إلى الجزائر التي غادرها بعد ذلك هو وصاحبه على متن باخرة تدعى (كلوكوز-Glaucus) كانت تتبع شركة (هولتز-Holtz) وكانت هذه السفينة تقوم برحلة أسبوعية بين الجزائر العاصمة وبورسعيد، إلا أنها كانت ستقوم بالسفر إلى جدة مباشرة في تلك الرحلة بعد الوقوف في بورسعيد والسويس وقد استغرقت رحلتهم إلى جدة عشرة أيام.

وصفه لميناء جدة :

يقول كورتلمون أنه عندما وصلت السفينة إلى جدة: «انتظرنا طويلا وصول أحد المرشدين، إذ يصعب على السفينة «كلوكوز» أن تزحف إلى مسافة أكثر نحو الساحل، وأخيرًا جاء المرشد فصعد إلى جسر السفينة. إنه رجل يرتدي بدلة طويلة، وعلى رأسه عمامة متواضعة، لون عينيه أسود أدكن، كما لو أنهما محترقتان، يحدق في الأفق دون أن يرمش، ويعطي أوامره المتعلقة بإجراءات الوصول باللغة الانجليزية». ثم يستطرد الرحالة قائلًا: «رسونا على مسافة عدة أميال من البر، أكثر من المسافة المعتادة لأن ربان سفينتنا شديد الاحتياط، فهو لا يريد الزيادة في عدد السفن التي غرقت على الساحل الممتلئ بحطامها، إذ نرى هنا سفينة تجارية مشطورة إلى نصفين وهناك يظهر لنا على سطح الماء، شراع وبجانبه قمة مدخنة، وبموازاة ضفة البحر تنتشر علامات صخور متموجة تبرز في مستوى سطح المياه تدل على وجود أرصفة مرجانية

مما يشكل تهديدًا دائما للسفن ([193]). وبعد أن قضى كورتلمون فترة من الزمن في جدة قرر السفر إلى مكة المكرمة وبدأ استعداداته للرحلة.

وصفه الطريق من جدة إلى مكة المكرمة:

عندما سافر رحالتنا من جدة إلى مكة المكرمة وصف مسار رحلته من جدة إلى مكة المكرمة، ووسيلة النقل التي استخدمها لذلك، والمدة التي استغرقتها الرحلة في كتابه ما ننقل منه هنا بتصرف: أصبح كُل شيء جاهزًا للانطلاق، توضأت الوضوء الأكبر، ولبست ثوب الإحرام. ها أنا ذا على الطريق امتطي حماري، عاري الجذع، حليق الرأس، في الساعة الثانية ظهرًا، تحت وهج شمس محرقة. سرنا في منبسط مرمل نحو ١٦ كلم، ثم ارتفع الطريق بشكل غير ملحوظ، منزلقًا بين جبال الحجاز الجرداء، التي تتتابع خلجانها، الشبيهة بالبراكين الخامدة، كحبات سبحة طويلة. لقد سوت حوافر القوافل، بمرورها على مر السنين، الصخور التي كانت تشكل عوائق على الطريق، فأصبحت الطريق مستوية تشبه تمامًا مجرى وادٍ رملي جاف. ينزل الظلام في هذه المنطقة بشكل مفاجئ تقريبًا، وفترة الغروب لا تستغرق وقتًا طويلًا، كما أن نور القمر الخافت لا يظهر إلا نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل» . ثم يصف هذا الرحالة وقوفهم للراحة في «حدة» التي تقع في منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة فيقول: نحن الآن في قرية «حدة»، في منتصف الطريق أنزلنا أغراضنا عن ظهور الحمير، صلينا جماعة، ثم قُدم لنا الأكل» . وبعد مغادرتهم «حدة» يقول كورتلمون عن بقية الطريق: «ومرة أخرى

193- كورتلمون، جيل: رحلتي إلى مكة، ترجمة / محمد أحمد الحناشي، التراث، الرياض، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ص ص٩-١٥.

وجدنا أنفسنا من جديد في المنخفضات الدائرية، وهي حفر سوداء بعيدة القرار، فأخذتني سنه من النوم، وبدأت في الحلم»([194]).

وصفه الوصول إلى مكة المكرمة:

يقول كورتلمون إنه عند حدود مكة المكرمة رأى عامودين من الأسمنت تشير إلى بداية حدود الحرم يشبهان باب المزرعة يبتعد بعضها عن بعض عدة أمتار. استمر رحالتنا في السير مع رفاقه باتجاه المدينة المقدسة ووصل إليها بعد تجاوز أحد منعطفات الطريق. ويصف هذا الرحالة الفرنسي المسلم مدخل مدينة مكة المكرمة فيقول: تختفي مكة بين جبلين يقتربان بعضهما عن بعض، ولا نعلم بدخول المدينة إلا بعد دخول شوارعها الأولى. لا توجد نظرة شاملة تمكننا من مشاهدتها كاملة، فالشوارع تتابع، وكلها متشابهة، تستمر هكذا إلى الحرم الشريف الذي يمكن القول بأنه يتوارى في مكان ما أسفل المدينة، وتختفي عن النظر بشكل غامض، كما تختفي البيضة في قاع العش.

وصفه المسجد الحرام:

يصف كورتلمون الحرم الشريف قائلًا: دخلنا فناء الحرم الشريف بعد ترحيب مطوفنا عبدالرحمن بوشناق بقدومنا وهو المسجد الكبير والوحيد في مكة المكرمة، ها هي ذي الكعبة المشرفة. (كان في مكة المكرمة آنذاك مساجد أخرى – كاتب المقال). ثم يستطرد رحالتنا قائلًا: كانت الساعة تقترب من السادسة، وهناك بصيص نور وردي يضفي على جميع الأشياء مسحة الصباح الندية، فجلسنا في ساحة الحرم الشريف ينتابنا شعور من الإجلال والحب، وبعد برهة من التأمل شرعنا في أداء

194 – نفس المصدر السابق، ص ص٦٧–٧٠.

أولى الصلوات. ثم يصف لنا كورتلمون طوافه حول الكعبة المشرفة مع أحد أقارب مطوفة ويدعى أحمد بوشناق. فيقول: إنه تشرف بتقبيل الحجر الأسود بعد الانتهاء من الطواف. ووصف الحجر الأسود وقال إنه: على علو قامة رجل، ومغلف بقرص من الفضة السميكة وعرضه نحو ٨٠ سنتميترًا، بشكل بيضاوي، رائحته تشبه العنبر الخفيف. ثم بعد ذلك وصف كورتلمون أداءه السعي الذي قال: إنه يتمثل بقطع المسافة التي تفصل الصفا عن المروة، والقيام بذلك سبع مرات، نصفها بخطوات عادية ونصفها الآخر بخطا مسرعة، «والصفا والمروة جبلان مكشوفان يبعدان بعضهما عن بعض بنحو خمسمائة متر، ومجموع المسافة التي نقطعها خلال السعي تصل إلى نحو ٣٥٠٠ متر».

وصفه لمشاهد مدينة مكة المكرمة :

يصف جيل – جرفيه كورتلمون في كتابه المشار إليه (رحلتي إلى مكة) هذه المدينة المقدسة وصفا مفصلًا ومزودًا بكثير من الصور التي تعد من أوائل صور مكة المكرمة وجرى تداول بعضها على مر العقود والسنين وتنسب أحيانًا بعض هذه الصور خطأً لرحالة ولمصورين آخرين. ويبدأ كورتلمون في وصف منازل مكة المكرمة فيقول: تتوافر جميع بيوت مكة المكرمة على سطوح محاطة بأسوار منخفضة مبنية من اللبن المصفوف على شكل مربعات منسقة بين فراغات، وهذا الوضع يسمح بمرور الهواء بحرية دون أن يكشف الجار بيت جاره. ولا شك أن المكيين يصعدون كل مساء إلى السطوح لينامو فيها خلال عدة أشهر من السنة. والتقط كورتلمون صورا بنورامية لمكة المكرمة من أعلى أحد جبالها المحيطة بالحرم الشريف، بعد أن صعد إلى أعلى ذلك الجبل وضمّن بعض هذه الصور في كتاب رحلته المشار إليه. ويقدر كورتلمون عن

سكان مكة خلال زيارته لها نحو ١٠٠,٠٠٠نسمة ([١٩٥]) ، ويبدومن وصفه أن مكة كانت غاصة بالوافدين والعمار فى ذلك الوقت.

وصفه لأسواق مكة المكرمة:

ويتحدث رحالتنا عن أسواق مكة وبعض ما كان فيها من بضائع فيقول: تنتظم المهن في أحياء، كما هو الحال في جميع المدن العربية، وكان كل يوم يمثل بالنسبة إلى استكشافًا جديدًا. ذهبنا في أحد الأيام إلى أحد باعة القماش، فتمكنا بعد أخذ ورد، وبعد مفاوضات طويلة، ونقاش أطول، من شراء حزام وعمامة وقفطان وقطعة من القماش، وذهبنا في اليوم التالي، إلى سوق العطور، لشراء قليل من البخور لصديقنا الحميم في الجزائر عبدالرحمن، وشيئًا من زيت خشب الصندل والمسك لأصدقاء آخرين، وذهبنا في يوم آخر إلى الحي الذي تباع فيه صفائح الماء من أجل التزود بماء زمزم. يوجد بهذا الحي عدد كبير من الحرفيين يصنعون من دون توقف أوعية من القصدير، من جميع الأشكال والأحجام، معدة خصيصًا لتُعبأ بماء زمزم، وتراهم يُفصِلون ويلحمون ثم يملؤون، ويبيعون بأنفسهم، في محلاتهم التجارية الصغيرة، وهذه الأشياء الصغيرة الغالية التي يأخذها كل واحد منا عند عودته إلى بلده.. إذا عدنا إليه بصحة جيدة، بعون الله.

أما شراء الأشياء المصوغة، مثل خواتم الذهب أو الفضة، فتتطلب التحلي بالصبر. وتمثل الصياغات المكية مؤسسة حقيقية، يسيرها ويديرها، كما تسير المؤسسات الحكومية، أحد الشيوخ (شيخ الصاغة) وهو من حرفي المهنة نفسها. فهم صناع مهرة، يصنعون تحفًا جميلة بطريقة متقنة

---

195 – نفس المصدر السابق، ص ص٧٧- ٨٠.

ومتأنية، مثل سلاسل من الذهب والفضة، كما يصنعون عددًا كبيرًا من الخناجر التي يطلق عليها هناك اسم «الجنبية» ويتمنطق بها جميع عرب الصحراء، وتوضع أغلب هذه الخناجر في أغمدة فضية مذهبة على شكل (كم). ويصف كورتلمون طريقة تسعير الذهب عن طريق تحديد سعر الدرهم والذي يقول إنه يعادل نحو (ثلاثة جرامات) والتي تعد الوحدة الأساسية في ميزان صفقات الصاغه وزبائنهم .

ويقول كورتلمون: إنه لاحظ خلال تجوله في مدينة مكة المكرمة وجود عدة ماركات من البضائع المستوردة من أوروبا، كالأقمشة والمواد الغذائية، والخردوات، وبعض البضائع الإنجليزية والهولندية، وبعض الماركات الألمانية والإيطالية وأيضًا ولكن بشكل نادر بعض الماركات الفرنسية (وخاصة السكر المكرر في مصفاة مارسيليا).

ويخاطب كورتلمون عبر كتابه تجار فرنسا فيقول لهم: «لا يدخل في اختصاصي أن أعرف هل في إمكان التجار الفرنسيين المنافسة التجارية في هذه البضائع (مع التجار الإنجليز)، إلا أنني أؤكد أن هناك الشيء الكثير الذي يجب القيام به في هذا المجال، ولا أرغب في إثارة انتباه الفرنسيين إلى القماش فقط، بل هناك أيضًا المواد الغذائية، كالسكر والقهوة والأرز، والمعجنات، والبهارات، والفواكه، والأسماك المعلبة، بالإضافة إلى الألبسة وأدوات المطبخ والغسيل والأرفف والأدوات الأخرى . ما أن انتهى كورتلمون من زيارته إلى مكة المكرمة حتى بدأ يفكر في رحلة العودة إلى جدة والتي سيسافر منها عائدًا بعد ذلك إلى بلاده عن طريق ينبع.

بعد أن غادر جدة وصل كورتلمون إلى (ينبع) وقام بجولة فيها وتحدث عن أسواقها وبعض محتويات هذه الاسواق، كما تحدث عن سفينة

إنجليزية كانت راسية بجانبهم وكانت محملة بالقمح الذي كانت الحكومة العثمانية قد أرسلته. ومن ينبع توجهت السفينة التي أقلت كورتلمون إلى السويس ورست في حوضه بعد يومين. ومن السويس سافر كورتلمون إلى فرنسا على متن سفينة النقل البحري السريع (ملبورن MELBOURNE) في جو بارد وممطر ([١٩٦]).

196- نفس المصدر السابق، ص/١٢٧ - ١٤٦

obeikandl.com